

موضوعات إسلامية - موضوعات مختصرة - الدرس (١٦): موعظة عن العمر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٦-٠١-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

حقيقة العمر الذي يعيشه الإنسان :

سألني أخ كريم عن موضوع العُمر، العُمر الذي يعيشه الإنسان، ما حقيقته؟ وكيف ينتهي؟ وهل هو محدّد في انتهائه؟ وإذا قُتل الإنسان هل يموت بأجله؟
كلّمك يعلم أنّ النقطة إذا تحرّكت رسمت خطأ، والخط إذا تحرّك رسم سطحًا، والسطح إذا تحرّك رسم حجمًا، والحجم إذا تحرّك شكّل زمنًا، لذلك قالوا: الزّمن هو البُعد الرابع للأشياء، والزّمن متعلّق بالحركة، والإنسان في حقيقته زمن! لأنّه يتحرّك إلى نقطة ثابتة، والأيام تمضي؛ والأسابيع والأشهر والسنوات، ثم يجيء الأجل وينتهي العمر، فالإنسان في حقيقته زمن، والله عز وجل يقول:

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ رَبِّي اعْبُدْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

[سورة العصر: ١-٣]

ما هي خسارته؟ إنّ مضيّ الزّمن يستهلك الإنسان، فالإنسان أحيانًا يتوهّم أنّه صغرت سنّه إذا عدّ عمره عدًّا تصاعديًّا، يقول لك: كبرت سنّي، أما إذا عدّ عمره عدًّا تنازليًّا، يقول: كم بقي لي؟ الإنسان إذا سأل هذا السؤال وقع في حرج، هل بقي بقدر ما مضى؟! إذا كان الذي مضى مضى كتمح البصر فالذي بقي إذا كان أقلّ ممّا مضى سيمضي بأقلّ من لمح البصر، ثم يفاجأ الإنسان أنّه أمام عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، فالعمر هو ظرف العمل، فعملك الصالح أو السيئ له ظرف هو العمر، وربنا عز وجل قال:

﴿ أُولَئِكَ نَعْمَ لَكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

[سورة فاطر: ٣٧]

فإنّ الله عز وجل عمّر لنا العمر المناسب، لأنّ موت الإنسان أخطر حدّث في حياته، لأنّه انتقال كليّ من دار إلى دار، وختمّ العمل، وإغلاق باب العمل، لا يوم ولادته، ولا يوم زواجه، ولا يوم وفاته، والدليل قوله تعالى:

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

[سورة الملك: ٢]

بدأ بالموت، وهو تقديم أهميّة، ففي البدايات هناك خيارات عديدة جدًّا أما هو الذي خلق الموت والحياة، فالموت محدّد والأجل محدّد، قال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

[سورة الأعراف: ٣٤]

ومع أنه محدّد هو أنسب عمر للإنسان، إذا كشف الغطاء يوم القيامة عن حكمة العمر الذي عاشه الإنسان لا يملك إلا أن يقول: الحمد لله رب العالمين، لأن كل شيء وقع وأراده الله، وكل ما أراد الله وقع، فهل يقع الموت من دون إرادة الله؟! حتى القاتل إذا قتل إنساناً، هذا الإنسان منوطاً بأجله، وقد ذكرت مثلاً عن بستان في الزبداني، زرع فيه أشجار تفاح، الشجرة الخامسة، في الفرع الثالث، في الغصن كذا، التفاحة الخامسة هي لفلان!! أما فلان من الناس باختياره أن يحدّد طريقة وصول هذه التفاحة إليه، فقد يشتريها بماله، وقد يسرقها وهي له، وقد يأكلها ضيافةً وهي له، وقد يتسولها وهي له، فهذه كلّها طرق، وهي له، وكذا الموت محدّد، فقد يموت على فراشه، وقد يموت قتلاً، وقد يموت بمرض، وقد يموت بحادث، والنقطة الدقيقة أن الأسباب تنوّعت، ولكن الموت واحداً!

العبرة بمضمون عمر الإنسان لا بطوله أو قصره :

قد يقول قائل: كيف يُحاسب القاتل على فعلته؟ يحاسب لأنه أقدم على قتل إنسانٍ بغير حقّ، فالقاضي إن حكم على المجرم بالإعدام وفق أحكام الشريعة، هل يُحاسب القاضي عند الله؟! لا، لأن التوحيد لا يُلغي المسؤولية، لو أنّ طبيباً أخطأ مع مريض، ومات المريض، فالذي قال: من طبّب ولم يُعلم منه طبّ فهو ضامن، يجب أن يدفع الدية، فالمريض مات بأجله، ولكن نقول لهذا الطبيب: لا علاقة لك بالتوحيد، فأنت محاسب ومُقصر! ونقول للقاتل: قتلت نفساً بغير نفس، فالعمر هو ظرف عمل الإنسان، إلا أنّ العمر أنواع: فالعمر الزماني لا قيمة له إطلاقاً، ففي التاريخ الإسلامي نجد علماء كباراً تركوا آثاراً مذهلة، وعاشوا أقلّ من خمسين عاماً كالإمام النووي رحمه الله تعالى، وهناك قادة فتحوا آسيا وعاشوا أقلّ من ثلاثين عاماً، وهناك أعمار تافهة كأن يعيش ثمانين سنة من دون عمل صالح، وأوضح مثل يُوضّح العمر، دُكان فتح بساعة باع بمليون، ودُكان آخر بعشر ساعات باع مئة ليرة! فالعبرة بمضمون هذا العمر، ولذلك الله عز وجل في آية وحيدة أقسم بعمر النبي عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

[سورة الحجر: ٧٢]

لأنّ عمر النبي عليه الصلاة والسلام ثمين، فهو في مده يسيرة قلب وجه الأرض، ورسخ التوحيد في الأرض، والفضيلة والسعادة والقيم، فإياك أن تقيس العمر زمينياً فهو لا قيمة له إطلاقاً، ورد في بعض الأدعية: " لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزد فيه قرباً إلى الله تعالى، ولا علماً حتى لو أمضيت عمرك في المباحات فأنت في خسارة، لأنّ مضيّ الزمن يستهلك الإنسان، قال تعالى:

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِبَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾

[سورة العصر: ١-٣]

قال الحسن البصري: " ما من يوم ينشق فجره إلا ويُنادي يا بن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزوّد مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة" وعقارب الزّمن لا يمكن أن ترجع ! فأنت بين يوم مضى، والحديث عنه لا جدوى، وبين يوم سيأتي لا تملكه، وأذكر أنني جلستُ مع رجل في المدرسة فحدّثني عن خطّته لعشرين سنة قادمة، أنه سيذهب إلى الجزائر ويُدرّس هناك خمس سنوات، ويطلّع على معالم البلد، ويزور فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، ويعود بعدها إلى الشام ليفتح محلاً ويكبر أولاده ويتقاعد، انتهى اللّقاء وعُدتُ إلى البيت، ثم عُدتُ مساءً إلى عملي في مركز المدينة، وأنا في طريق العودة إلى البيت رأيتُ نعتهُ على الجدران في اليوم نفسه !! لذا قالوا: من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت ! من حوالي شهر صلّى أحد أخواننا العشاء، وآوى إلى فراشه والعادة أن يُصلي الفجر في المسجد، ويبدو أن أهله لم ينتبهوا أصلي أم لا ؟! في الساعة الثامنة والنّصف هيؤوا الطّعام، وقالت الأم لابنها: أيقظ أبك فوجدّه ميتاً !! فالأجل مُحدّد، وإخفاؤه عنا لحكمة بالغة ! قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِبَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

[سورة آل عمران: ١٠٢]

الموت يأتي بغتةً والقبر صندوق العمل :

الموت يأتي بغتةً، والقبر صندوق العمل، وهذه الآية تُحير، فهل الموت بأيدينا حتّى تتهاننا عن أن نموت؟! العلماء قالوا: لا يأتيكم الموت إلا وأنتم مسلمون، بالضبط كما لو كانت عندك سفرة إلى أمريكا، والبطاقة بمئة ألف ليرة، فإذا لم تُسافر على هذه الطائرة تخسر ثمن هذه البطاقة افتراضاً، فإذا قلت: متى موعد السّفرة؟ يقولون لك: نحن نأتيك صباحاً الساعة كذا ولا ننتظر إلا دقيقة واحدة، فيجب أن يأتيك الموت وأنت مسلم وتائب ومُطبّق، أحد الأشخاص كان له مطعم يبيع الخمر فيه، تاب إلى الله فقلّت غلّته فرجع إلى ما كان، وبعد اثني عشر يوماً وافته المنية وهو يبيع الخمر!! ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون ! أحد الأخوة أصيب بجلطة وهو في فراش الموت قال: أتوني بمُسجّلة فسجّل كلامه قائلاً: الممتلكات التي لي اغتصبتها من أخوتي ! وبعد أسبوع عاد إلى حالته وكان شيئاً لم يكن، فطلب الشريط وكسّره !! وبعد ثمانية أشهر وافته المنية، لذا راقب نفسك وأهلك، هل الزوجة محبّبة؟ هل بناتك تقيّات؟ هل أولادك يُصلون؟ هل الدّخل حلال؟ قال تعالى:

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمَنْ وَرَأَاهُمْ بَرَزْخٍ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

[سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠]

نحن الآن في ببحوحة، والقلب ينبض، وتؤدِّي زكاة مالك، وتؤدِّي الحقوق التي عليك، اغتصبت مال الورثة، هذا كلّه محاسب عليه فانتبه وأدِّ ما عليك لأنّ العمر محدود، ولا يوجد تأخير، فالمقتول يموت بأجله والقائل يُحاسب كقاتل، هكذا عقيدة أهل السنة، لذا أنت بين خمسة أيام ؛ ويوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مورود، ويوم موعود، ويوم ممدود، فالمفقود هو الماضي، والمشهود الحاضر، والمورود الموت، والموعود يوم القيامة، والممدود إما في جنّة إلى أبد الآبدين، وإما في نار إلى أبد الآبدين، وأخطر هذه الأيام هو اليوم المشهود الذي تشهده، لا تقل: سوف ! أدّ الذي عليك في الحاضر، ولا تُسوِّف، فلا تمت وأنت متلبس بمَعْصية، والإِنسان كيف أمضى عمره يجعل طريقة موته تلخيصاً لعمره كلّه، لذلك قالوا: صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

والحمد لله رب العالمين